نقد وتحليل

لرباعيات حافظ الشيرازي

بقلم المترجم

الرّباعيات من مظاهر الشعر الفارسي منذ أجيال ، وقد استودعها شعراء فارس روائع شتّى من نظمهم الوجداني الذي تنسوا وتنشي تلاميذهم ومريدوهم به شرقاً وغرباً . وأخذت لها في هذا الشعر مكانة السّونيتات في الأدب الاوربي ، فكانت حقائب جذّابة لمعاني النفس الصوفية والفلسفية وصارت معدودة من جوامع الكلم وآيات الخيال الباهر والشعور العميق ، كلٌّ منها مستقلة في استيقاف النظر وأسر العواطف ، وفي قسمها الثاني اعتياداً رأيٌ حاسمٌ هو زبدة غالية وصنوُ الجمال الذي في الرباعية . مثال ذلك قولُ حافظ الشيرازي : —

حدّثتني : « إني لك البشرى طَموعٌ تتشجّعْ ، وصُنْ هواك بحِلْمِ »
آمِ ، ما القلبُ ؟ قال صوت حكيمٌ : « كتلة مِنْ دَمٍ حَوَتْ ألفَ همٍّ »

فقد عرّف لنا « القلبَ » تعريفاً جازماً في ختام الرّباعية وكأنما كنّا على جهلٍ بتعريفه ، وكان ساخراً ضمناً بنصيحة « الحِلم » لصيانة الحب ، وعرّض في ايجازٍ بديع هذا الحوارَ الوجدانيّ الفلسفيّ . وهذا شأنُ جميع الرباعيات المحبوبة المشهورة . ونظامها في الفارسية بحرٌ واحدٌ ، وأمّا في الانجليزية فقد تعددت البحور المختارة للترجمة اليها ، ولعل أنسبها النسق الذي اختاره مترجم الـ Fitz Gerald مترجم « رباعيات عمر الخيام » أو بالأحرى المقتبس منها ، وكذلك هامر Hammer وبكنل Bicknell وقد اتخذا بحراً مؤلفاً من عشرة مقاطع لكل شطر ، واستعمل بودنستد Bodenstedt الألماني وأقرانه البحر الاسكندري المشهور (وهو من البحور الطويلة) ليلائم الاسلوب الشرقيّ في التنفس والتعبير ، وقد رأينا بحر « الخفيف » ملائماً جداً في ترجمتنا العربية هذه فاتبعناه .

واذا كانت هذه هي كرامة الرباعيات وتقدير الأدب العالمي لها صياغةً وموضوعاً

فمن هو حافظ الشيرازي الذي تحتفي هذه الحفاوة بأدبه ورباعياته ؛ وما هو شأنها ومستواها في نظر الناقد المحلل ؟

هذا سؤال لا يُطرح على طلبة الأدب الفارسي العارفين من بحوره ، ولكنه يُطرح على القارئ العربي الذي ينتظر منا في الوقت ذاته الجواب السديد ، وقديماً كان الادبان على صلة وثيقة يتبادلان الفيء ، ولكن منذ أخذ الشرق العربي يتجه الى الغرب اتجاهاً طويلاً فقدنا هذه الصلة القديمة ، الى أن أخذت « الجامعة المصرية » في الترعرع فبدأت في ناحية من نواحيها تعمل لاستعادة هذه العلاقة القديمة المفيدة بفضل رجالها الاعلام الذين شغفوا بالأدب الفارسي وتوفروا على دراسته وتعليمه

* * *

لحافظ الشيرازي منزلة الشاعر ومنزلة الفيلسوف الروحاني ، ومواهبه الشعرية الفلسفية تتلاقى دائماً في نظمه ، وكيفما كانت نظرة هذا العصر الى فلسفته بل الى الفلسفة الصوفية عامة فما لا نزاع فيه أن شاعرية حافظ الشيرازي في الطبقة الأولى . وقد وصفه فتزجرالد بقوله « إنه أصدق شعراء الفرس تعبيراً عن الروح الفارسية » . فمعظم اولئك الشعراء مقلد ، ولا روعة لأحاديث خرهم وورودهم وهزارهم ومحبوبهم وسقاتهم ، حينما شعر حافظ يختال في بُرد الحياة لأنه معبّر اصيل لا يعترف باستاذ غير الطبيعة ، وكأنما هو الأحق بقول أبي الطيب :

فدعْ كلَّ صوتٍ غير صوتي فانما أنا الطائرُ المحكيُّ والآخرُ الصَّدَى !

وكلُّ مَنْ تذوّق الفنَّ الفارسيَّ في ضروبه المختلفة يحلو له أن يعترف بثروته في الابتكار والتخيّل والعظمة . وهكذا شعر حافظ الشيرازي ، لأنه نموذجٌ صادقٌ حيٌّ للفنّ الفارسيّ في مجال الشعر — ذلك الفنّ الذي يستوحي الجمالَ في جميع صُوَره ، ثم يعبر عنه بمهارة ورشاقة خلّابة . وفي طليعة من افتتنوا بشعر حافظ الشيرازي المستشرق اليوسني الشهير سُودي (Sudi) وقد كتب ترجمة عظيمة له حول القرن السابع عشر وكان يصف شعره بأنه ذو نفحات إلهية وقد اغتسل بماء الحياة تنبض منها . ويماثله عمر الخيام في حيوية شعره ، كما يتماثلان في عشقهما الحرية وكرهما لنفاق المتاجرين بالدين ، ولهما في نظم هذا الرياء نظمٌ مشهورٌ مما جعلهما عرضةً لشتى الاتهامات بالكفر والزندقة ونحو ذلك

فاذا كانت الرباعيات في ذاتها فنّاً شعريّاً مقبولاً فهما نزيدها رواءً أن تنقل لنا جديدَ المعاني وألوانَ الشعور المألوف والغريب ، وذلك عن أمة عريقة في المجد اشتهرت بجمال

الاحساس والذوق الفنّي ولطف التعبير ، وهكذا صارت للرباعيات الفارسية مزايا خاصة بها لاسيما ومانُقِلَ منها الى العربية حتى الآن كان من أحاسنها ، وحسبك برباعيات عمر الخيام جمالاً وشهرةً . والآن تختال في ميدان الادب العربي رباعياتُ حافظ الشيرازي وقد سبقها استعدادُ الأدباء للاقبال عليها وتقديرها لأنهم تذوقوا من قبل جمالَ الرباعيات الفارسية فتطلعوا الى كلِّ جديدٍ في بابها

***

وُلِدَ حافظ الشيرازي في أوائل القرن الرابع عشر (ولا يُعْرَف تاريخ ميلاده بالضبط) بمدينة شيراز ، واسمُهُ الاصليُّ « شمس الدين محمد » ، وهو بلا نزاع أشهر شعراء فارس على الاطلاق في استيعابهِ للروح الفارسية وفي قوميته الشاملة . وكان من أسرة صالحة ولكنها لم تُعرف بالغنى — شأن الكثير من الأسر التي أنجبت نوابغ الرجال ، فتعلّم دروسَ الحياة في مدرسة الفقر وذاق مرارة التجاريب التي ذاقها من قبله ومن بعده أهلُ النبوغ . وتتلمذ في صغره على الشيخ محمد عطار من علماء الصوفية في شيراز ، وكان عالماً فاضلاً وفيلسوفاً بارعاً ينظر الى فلسفة الحياة نظرةً علمية فلم يهمل مطالب الروح والعقل كما لم يهمل مطالب الجسم ، وهكذا نشأ تلميذه حافظ معتدلاً في نهجه ولم ينزع الى التنسك والتقشف الكلّي ، بل ساوت لديه دنيا الروح ودنيا المادة ، وبهذا المبدأ استطاع في حياته أن يتجنب المزالقَ الكثيرة وأن يجوب بحكمة خلال الخاطر آمناً ظافراً ، وإنْ يكن قد تعرض كثيراً لسخط المتزمتين من الصوفيين في زمنه

وقد تفتحتْ شاعريةُ حافظ في صباه لأنداء الحبِّ وشمسه ، فعشق عشقاً صحيحاً واستودع شعرَه الجميل أناتهِ وزفراتهِ ودموعَه الحارة . وبدت أمارات نبوغه حينما أخذ يتم قصيدةً مثبتة بدأها عمه سعدي الشاعر ، وكان حافظ في صباه وكان هذا العم غائباً . فلما عاد العم الى بيته دهش من تفوق ابن أخيهِ وغار منه غيرةً عظيمةً ! وليت هذا الفتى الشاعر يترعرع ويسترعي انتباه العظماء اليه كما كان شأن المتنبي في زمنه ، ولم يكن مشغولاً بفن الشعر وحده بل كان يلقي دروساً مشهورة في تفسير القرآن الكريم في المدرسة التي أسسها له الوزير قوام الدين في شيراز وكان هذا الوزيرُ في طليعة المعجبين بحافظ . وكان يؤمُّ هذه المدرسةَ كثيرون من الطلاب من شتى الاقطار التي ذاعت فيها شهرته إذْ بلغت حتى أقاصي الهند بدليل دعوة ملك بنغال (غياث الدين برتي) لحافظ حول سنة ١٣٦٩ م . ليزوره ، ولكن

حافظ اعتذر عن هذا السفر لانه كان شديد التعلق بوطنه وآله وصحبه فنفحه الملك غياث الدين بمنحة سنية تقديراً لمنزلته ومواهبه الفريدة

ونحن لو تتبعنا سيرة علاقاته بالملوك والوزراء لوجدناها سيرةً طويلة وكلها تدل على أنه المطلوب لا الطالب ، وجميعهم مفتونٌ بأدبه الرائع الذي يكفينا في تعريفه أن نقول إنه صيغ من حسٍ صادق وشعورٍ قويٍ وخيالٍ صافٍ بعيد التحليق والنفوذ حتى نعته دولت شاه «بلسان الغيب». ويهزنا من سيرة حافظ تعلقه بآل بيته وحبه العظيم لزوجته نتأثر باستعطافه إياها حينما تركته غضبى الى بيت والدها، ولا شك أنها تأثرت جداً بشعره لأنها عادت اليه عاجلةً حينما تلقت شعره الباكي، وما أقسى وقع مرثيته لها بعد هذه الزوجة نفسها على كل ذي حسٍ رقيقٍ، فقد بكاها بكل ذرة من كيانه ، وقس عليها مرثيته البليغة لابنه. وهذه الشاعرية القوية الجبارة تتجلى في جميع شعره الحافل به ديوانه العظيم . فلا غرابة اذا احتفت به الدنيا في عمره ودام تعلقها به على توالي العصور وكان ديوانه يستشار للطالع كما كانت الانيادة Aenied عند الرومان

* * *

لشاعرنا العظيم سبعون رباعية ، ولكنّ بعضها مشكوكٌ في أصله ولذلك أغفله الدكتور سيد عبد المجيد من الترجمة الانكليزية وأغفلناه نحن متابعةً لها فجاء عدد الرباعيات خمساً وستين رباعية . وقد اعتاد مترجمونا الافاضل سابقاً إباحة الحرية لانفسهم في النقل اللفظي والمعنوي بدرجات مختلفة وفي صورة النظم أيضاً . أما نحن فقد رأينا الاصلح جعل الترجمة لفظيةً معنويةً الى أقصى حدٍّ مستطاع والتقيد بأربعة أشطر لا ان نجعل صيغة الترجمة خماسية او سداسية أو غير ذلك ثم ندعوها بعد ذلك «رباعية». وقد كان الشاعر الانكليزي كرامر — بنج (L. Cramner - Byng) أميناً في نقله الشعري عن الترجمة النثرية واذا تصرّف قليلاً فانما في التعبير ايجازاً أو اسهاباً مع الحرص على المعنى الأصلي بحيث جاءت ترجمته والأصل على حد المثل السائر كالحسناء وخيالها في المرآة. وقد بذلنا أقصى الجهد لنبرّ بمجهود المترجم الانكليزي نبرّ بالأصل بقدر الاستطاعة، بحيث يصح لنا أن نقول إن رباعيات حافظ الشيرازي قد أنصفت إنصافاً لم تنله رباعيات عمر الخيام في معظم التراجمات السابقة . وهذه أمثلة من رباعيات حافظ وترجمتها نسردها في غير اختيار . جاء في النص الانكليزي الشعري للرباعية الثانية : —

Of that old wine some vanished Sultan grew
Give me, that I may paint life's scenes anew.
Oh Make me heedless of the heedless world
That I may sing the world's desire to you.

وهذه ترجمتها العربية :—

من عتيقِ الشرابِ بالأمسِ سلطا ... نٌ تعلّى، فجدْ أجدّدْهُ رسما
آهِ، دعني السالي لدنيا سلوٌّ ... فأغنّي رجاءها لك حتما

وجاء في الترجمة الانكليزية الرباعية الرابعة عشرة :—

Quoth I, "Your lip?" "The fount of life!" she cried.
Quoth I, "Your Mouth?" "Tis sugar, coraldyed";
Quoth I, "Your Speech?" "Ah, Sweetly Hafiz sang",
For each soft word some golden tongue is tied".

وهذه ترجمتها العربية :—

قلتُ : «هذا اللمى؟» فقالت: «حياةٌ!» ... قلتُ: «فوك؟» قالت: «حلا المرجانُ!»
قلتُ : «هذا الحديث؟» قالت : «شدْوي ... في غناء، وكلّ لفظٍ بيانُ»

وهي من أشق الرباعيات في ترجمتها، نظراً لما ازدحمت به من المعاني والحوار في أسلوب مركّز. وجاء في النص الانكليزي للرباعية الثالثة والثلاثين : —

How shall this golden tyranny abide ?
This breaking of a people's heart and pride ?
There is a bloodstained sword in broken hearts :
Whom the red steel doth follow woe betide !

وهذه ترجمتها العربية :—

كيف تنهي القساوةُ الذهبيّة ... صدعُ قلبٍ وصدعُ روحٍ أبيّة!
في قلوبٍ كسيرةٍ خضّبَ السيـ ... ـفُ دماً يتلو مجاري البليّة

وأشعر أنّ مجال الترجمة لا يمكن ان يسمح بدقةٍ أبعد من هذه في النقل ولا بألفاظ

أكثر . وفي الواقع إن حافظ الشيرازي قليلُ الالفاظ عويصُ المعاني بعيدُ الخيال ساحرُ المجاز،وكلُّ كلمة من كلماته لؤلؤة منضودة ذات قياس في عقد نظمه الحكم لا يمكن اغفالها ولا استبدالها.فأسلوبه قويٌّ،ناضجٌ،منسجمٌ،غنيُّ النبرات،متشبعٌ بروح الحبِّ والسرور والشباب وإن كانت تتخلله صيحاتُ الانسانية المعذبة على مدى الاجيال.وما أحسب أن النقاش واتس في رسمه بشاعة مامون (Mammon) إله الثروة قد روَّعنا بأكثر من الصورة التي رسمها حافظ الشيرازي بشعره في الرباعية الثالثة والثلاثين السالفة الذكر التي تنفجر بسخط على استعباد المال للانسانية وطعنها في الصميم . فلا بدع اذا اشتهر ديوان حافظ الشيرازي شرقاً وغرباً ، وتغنّى بنظمه عُشّاقُ الادب الفارسيّ ، ولا غرو إذا عُدَّتْ ترجمة رباعياته الى الانكليزية في سنة ١٩١٠ م . حادثاً ادبيًّا عظيماً ، وأن كانت لحافظ ترجمات ودراسات شتى في الأدب الاوروبي تزدان بها مكاتب الغرب .ونحن لا يمكننا ان ننسى حافظ الفيلسوف اذا ذكرنا حافظ الشاعر لأن الفلسفة والروح الشعرية تمتزجان امتزاجاً في نظمه . لقد كان متنوناً بعلوم الدين وبتفسير القرآن والتصوف المعتدل ومع هذا لم يسلم من ألسنة حاسديه حتى أنه كاد يُحرم الدفنَ الاسلامي بعد وفاته لولا الرجوع الى ديوانه والعثور أتفاقاً على ما يعزّز ايمانه . وهو صوفيٌّ مُستشرفٌ intuitionist للدين في نظره وجهتان—الوجهة الذهنية والوجهة الادبية ، وكلتاهما مؤدية الى عرفان أسمى وأدق « للكائن الأسمى » . فأما عن الوجهة الذهنية من الدين فانها بتأمل هندسة العالم ودراسة نواميسه وبحث العلل الذاتيّة والاسباب الحقيقية لكيانه والنظر في ما وراء الطبيعة تجعل الانسان يدرك أن الكائن الاسمى (Supreme Being) هو العقل الاسمى (Supreme Intellect) والمقصود بالكائن الاسمى الضمير الاسمى (Supreme Conscience)الذي يتصل به الخَلْقُ عن طريق ضمائرهم . ولما كانت هنالك درجات في العالم الأدبي اشبه بالدرجات الكهنوتية فانّ دوام الاتصال الخُلُقي بهذا «الضمير الاسمى» قد يؤدي الى بلوغ أسمى هذه الدرجات . هذه هي ناحيةٌ من نواحي المذهب الصوفي الذي دان به حافظ الشيرازي ، ولحسنُ الاستاذ الدكتور سيد عبد المجيد الذي وجّه النظر الى صورة فهم تباين هذا المذهب الصوفي لمن يجهل « العقيدة الثنائية » (Doctrine of Dualism) التي بسطها العلامة ابو حامد الغزالي قبل ديكارت وغيره من فلاسفة أوروبا . والصوفية التي دان بها حافظ الشيرازي ناحية جميلة هي عدم التمييز ما بين شخص الانسان وأشخاص سواه . فالامر الصالح حقيقةً في نظره هو تحقيق الشخصية التي تقدّر مقدَّماً من عداها . ويرى أن الخالق سبحانهُ وتعالى يتجلى في خلائقه ، وأن

هذه الخلائق في صميم معدنها من الضمير الخالد ، وقد أُحجبت في قيود الزمن والتركيب ولكنها محتفظة بالصفة الاصلية لها وهي أنها مستقلة عن الزمن بالنسبة لمارقها أي بالنسبة لما نالت بسببه وجودها الممتاز . فالعالم كوحدة موجود إمكاناً فقط ، والمحتويات المكنة بضمائرنا — وهي المرونة — توجد خالدة كأفكار تمل دائبين لبلوغها . وكلما ازددنا بلوغاً اليها شعرنا أننا لم نبلغه بعد منها غير منفصل عنا ، وهكذا كان التمييز بين سرورنا الشخصي وسرور غيرنا لا وجود له . وهذه العقيدة الصوفية تجعلنا نواجه المذاهب الخلقية التي أشاعها سدجوك (Sidgwick) وجرن (Green) وتسهل التوفيق ما بين النظرات المادية التي يؤمن بها فيلسوف كامبردج ، والنظرات الروحية التي يؤمن بها فيلسوف اكسفورد . ولا حاجة بنا الى الكلام على تاريخ الصوفية والباطنية في الاسلام فان مثل هذا البحث يمكننا الاستغناء عنه ولا حاجة بنا الى ما يحوم حوله من خلاف وجدل في مثل هذه الدراسة الادبية الصبية ، ومن يريد الرجوع الى ذلك فعنده مراجع شتى في الادب العربي وحده ومراجع فلسفية أوروبية كثيرة للتبيان عن آراء ديكارت ومالبرانش ولوك وبيركلي وليبنتز وكانت ، ومالها من مقابلات عجيبة في المذاهب الصوفية . وحسبنا هنا أن نقول إنَّ حافظ الشيرازي كفيلٌ باسعاد عامة قرائه في الغالب علاوة على إسعاد قرائه المتفلسفين المتصوفين ، لاننا اذا أخذنا رباعياته على ظاهرها ولم ننظر الى معانيها العميقة فانه لن تفوتنا حلاوة سائغة في سذاجة المعنى الظاهر منها . مثال ذلك الرباعية السادسة والاربعين إذ يقول :

خَبِّرِيني ما أَصْلُ عُقْدَةِ شَعْرٍ ومَعاني الأَحلامِ في ظِلِّ لَحْظِكْ
ثُمَّ مِنْ حَبَّةٍ لمْ يَضَعْ أحدٌ قُرْ بَكِ زَهْراً أمَا السِّرُّ في عِطْرِ قُرْبِكْ ؟!

***

وقد صدق تشارلس ستيوارت (Charles Stewart) في قوله ان حافظاً كان متفوقاً بصفائه وكان مصدر إلهام لبني وطنه حتى أن شعره كان يُتبارك به ويُرجع الى فأله ويُعَدُّ في المرتبة الاولى من الاحترام بعد القرآن الكريم . وقد أشرنا الى عادة استشارة ديوانه حتى أنه نفسه لم يسلم من حكم شعره عليه قبيل دفنه ! وممن كانوا يستشيرون ديوانه ويتفاءلون به أورنجزب Aurungzeb الامبراطور المغولي العظيم ، ونادر شاه الذي كان يعمد دائماً الى تبين فأله في ديوان حافظ قبل الاقدام على أي فتح ، وكذلك كان شأن مرزا مهدي خان قبل حمله على طوروس ، كما كان شأن غيرهم من الحكام والفاتحين الشرقيين في

ذلك العهد . ولئن لم يبق لهذه المادة أثرٌ بيننا فكلُّ محب لشعر حافظ عرضةٌ لأن تسوقه فتنته الى التبارك به وعرفان طالعه في سطور رباعياته؛ فقد جمعت هذه الرباعيات الفذة التي لم تتجاوز عدُّها خمساً وستين رباعية صُوراً شتى بديعة للنفس الانسانية في سرورها وحزنها ، في لعبها وتوجهها، في ايمانها وشكها ، في أملها ويأسها ، بل في حالات متعددة معبّرة عن متنوع خوالجها ، وبذلك جاءت هذه الرباعيات كتاباً وجدانيًّا فصيحَ البيان لكل قارئ حسب لظرائه اليه ، وإن جاءت الصياغةُ في ظاهرها أحياناً حاملةً بمعاني التناقض بحيث يصعب أن تفهم منها معاني الايمان ، ولكن الصوفيَّ يفهم ذلك ويرتاح اليه كما هو شأن الرباعية السابعة : —

الصّبا مَنْبَعُ السّلافِ الشهيِّ فاشربوا مُغْرِقِينَ ذُلَّ الصّبابَةْ
إنما الكونُ مَزْهَرٌ لخرابٍ وخرابُ الأربابِ يتلو خَرابَهْ

ويرى الفيلسوفُ الاجتماعيُّ نزعةَ الرجل الحرة وسخطَهُ على اولئك « الارباب » أي جبابرة الأرض في تفسيره — اولئك الذين يعيثون فساداً فيها بجبروتهم ، وقس على ذلك تفسير كل مستمتع بهذه الرباعيات حسب نزعته وتفكيره . ومثال ذلك قوله في الرباعية الستين :

يا عظيماً يوزّع الحاجاتِ بينَ جزاءٍ ومن مَلامٍ بقَدْرِ
لِمْ كَشَفِي عن سرِّ قلبي إذا كنتَ لا تستطيع عرفانَ سرّي ؟ !

نجد الطبيعةَ تتلألأ في مجموع هذه الرباعيات ، ونجد الحبَّ مزداناً ، ونرى ظلالاً جديدةً من المعاني والعواطف والتأملات في الحياة والموت ، ونرى كلَّ ما يجول في النفس من هامسٍ وخيالٍ مصوَّراً ولو في جانب من هذه الرباعية أو تلك، ونقرؤها ، ثم نقرؤها متبينا عبقريةَ هذا الشاعر الروحاني الفيلسوف الذي لا يكاد يضحك للدنيا حتى يصيح مكلوماً :

في ساعِ مُحالةٍ طارَ عُمْري أيُّ غُنْمٍ من قهرِ صَيْفٍ مارِقْ ؟
أصدقائي بالأمسِ عدَّ خصومي راحِ وَرْدٌ كما تهاوت زنابق

ثم يعزّي نفسه ويعزيك بفلسفة الاستسلام ولكنها أيضاً فلسفة البصير :

حَوَّلَ صونِ الحياةِ تصخبُ أمواجٌ بتقلبٍ والعُمرُ رَهْنُ المكابرِ
وقريباً سيقذفُ الدّهرُ يا صاحِ مَتاعَ الحياةِ من كسرِ بابِ